الانبعاث الشيعي المعاصر
بين تحدّيات الحاضر وآفاق المستقبل

إحسان العارضي

ملخص البحث

الشيعة الامامية ومنذ الحدث الإيراني الكبير المتمثل بالثورة الإسلامية واجهوا العديد من التحديات، لذا فإن هذه الدراسة تستهدف رصد الانبعاث الشيعي المعاصر، وبيات التحديات التي تواجهه، واستشراف آفاقه ومستقبله، وقد ضمنت الدراسة خمسة مباحث رئيسة هي: أولا: مفهوم الانبعاث الشيعي. ثانيا: التهديد الوجودي، مفهومه ودرجاته. ثالثا: المراحل التاريخية لحركة الانبعاث الشيعي. رابعا: التحديات المعاصرة وآفاق المستقيل، أما المبحث الخامس، فقد تضمن بعض التوصيات، ولعل أهمها: ضرورة قيام النخب الشيعية الواعية بواجبها الشرعي والأخلاقي عبر إثارة الوعي الشيعي إزاء التهديد الوجودي الذي يمثله الأعداء عبر المحاضرات والحوارات والكتب والدوريات، والتصدي الحازم لجميع المحاولات الرامية لحل فصائل المقاومة، أو دمجها بالأجهزة الأمنية، والعمل على ترصين وجودها الرسمي، ودعم فصائل المقاومة الإسلامية، والعمل على زيادة أواصر العمل الجماعي...

الكلمات المفتاحية: الانبعاث, مقومات الانبعاث, عناصر الانبعاث, التحديات.

إحسان العارضي

المقدّمة

تستهدف هذه الدراسة الموجزة رصد الانبعاث الشيعي المعاصر وبيانه والتحدّيات الحاضرة التي تواجهه واستشراف آفاق مستقبله، وكذلك إثارة الوعي الشيعي لدى النخب والقيادات الشيعيّة إزاء خطورة الهجمة الشرسة ضدّ الوجود الشيعي عبر استخدام المنهج التحليلي - الحركي وفق المعطيات المتوفّرة.

وهنا لابدّ لنا من التنويه بشدّة على أنّ هذه الدراسة لا تستهدف المكوّنات العرقيّة والطائفيّة الأخرى بأيّ حالٍ من الأحوال، بل هي محاولةٌ أوليةٌ لرصد وتحديد عوامل تهديد الوجود الشيعي في الحاضر والمستقبل وتقديم بعض التوصيات التي يراها الباحث مهمّةً في هذا المجال.

وضمّنت هذه الدراسة الموجزة خمسة مباحثٍ رئيسةٍ:

المبحث الأوّل: مفهوم الانبعاث الشيعي المعاصر، مقوّماته، نقاط القوّة والضعف فيه.

المبحث الثاني: التهديد الوجودي: مفهومه، درجاته.

المبحث الثالث: المراحل التاريخيّة – الحركية للانبعاث الشيعي.

المبحث الرابع: التحدّيات المعاصرة وآفاق المستقبل: التحدّي السياسي، التحدّي العسكري، التحدّي الاقتصادي.

المبحث الخامس: التوصيات.

المبحث الأوّل
مفهوم الانبعاث الشيعي المعاصر
مقوّماته /نقاط القوّة والضعف فيه

إنّ بروز الشيعة الإمامية بوصفها قوةّ مؤثّرةً في المنطقة والعالم في الوقت الحالي، لم يأت من فراغٍ أو حالةٍ ظرفيةٍ تزول بزوال أسبابها، بل إنّ له مسوغاته التأريخيّة والموضوعيّة، ولو راجعنا التأريخ الإسلامي لرأينا أنّه ما من طائفةٍ تعرّضت للتشويه والإقصاء والإبادة المنظّمة والظلم الفادح مثلما تعرّضت له مدرسة أهل البيت عليهم السلام، لكنّها بقيت صامدةً ونمت تدريجيّاً وتطوّرت أسباب قوّتها بفعل عوامل كثيرةٍ، أهمّها أنّها تمتلك أسباب القوّة الكامنة فيها ورعاية الله تعالى لها، ولو تعرّضت أيّ طائفةٍ أو جماعةٍ لما تعرّضت له هذه الطائفة لبادت واندثرت منذ زمنٍ طويلٍ، لكنّها قاومت ووقفت بوجه الطغاة ولم تفلح محاولاتهم على مرّ الزمن في تدميرها.

ولم يكن تبلور هذه القوّة وتناميها عن سابق تخطيطٍ بقدر ما هو نتيجةٌ طبيعيةٌ لحركة السنن التاريخيّة[1]، التي لم نعد قادرين بكلّ صراحة على حصر جميع أسبابها ومعرفة فواعلها الكاملة.

الشيعة الإماميّة ومنذ الحدث الإيراني الكبير المتمثّل بالثورة الإسلاميّة برزوا في الشرق الأوسط، بل وفي العالم بوصفهم قوّةً مادّيةً، ووجوداً شعبيّاً عريضاً، وفكراً سياسياً متميّزاً، حتّى أطلق بعض الكتاب الغربيين على الحقبة التي تلت الحدث الإيراني الكبير

(1) لمزيد من الايضاح عن السنن التاريخية: يمكن مراجعة كتابنا الموسوم: « دراسات موضوعية في السنن التاريخية ».

إحسان العارضي

ولهذه اللحظة بـ (الحقبة الشيعيّة)، وهي تسميةٌ قد تحمل الكثير من المعاني الباطنيّة، كما أنّها تسميةٌ مبالغٌ بها إلى حدٍّ ما، ولكن لا تخلو من حقيقةٍ، فإيران قوةٌ إقليميّةٌ، وشيعة العراق اليوم يتصدّرون العمليّة السياسيّة رغم السلبيات الموجودة في أدائهم، وفي البحرين فازت القائمة الشيعيّة وقد تصدّت القوى الحاكمة لها بالحديد والنار ومازال الصراع مستمراً بينهما، وفي لبنان يشكّل الشيعة أهمّ العوامل التي تتدخّل بفاعليّة في رسم مصير البلد، وفي اليمن انبعاثٌ شيعيٌّ بعد غياب، وفي الخليج شيعةٌ متمكّنون ولهم علاقاتٌ وطيدة بالدّولة، وكذلك انتشر التشيّع بقوّةٍ في أفريقيا وأوربا وبقية أنحاء المعمورة.

وهذا يؤشّر بدايةَ مرحلةٍ تاريخيّةٍ مهمّةٍ لانبعاث القوّة الشيعيّة في المنطقة والعالم.

أوّلاً: مفهوم الانبعاث الشيعي المعاصر

نقصد به ولادة وعيٍّ شيعيٍّ عامٍّ يعي مصادر قوته العقدية والبشرية يرافقه انبعاث قوّةٍ عقديّةٍ – عسكريّةٍ لأوّل مرّةٍ في التاريخ الشيعي، بحيث أضحى هذا الانبعاث مَعلماً بارزاً في الساحتين الاقليميّة والعالميّة.

مقوّمات الانبعاث الشيعي

الجانب العقدي الرصين وقوة الجانب العاطفي الشيعي المتأثّر بشدة بالنهضة الحسينية المتوجة بعاشوراء الطفّ والشهادة.

المرجعيّة الدينيّة.

التراكم التاريخي: ونقصد به التراكم التدريجي للأحداث والسياسات التي انفعلت بها الشيعة الإماميّة والتي ساهمت بقوةٍ في إنضاج الوعي الشيعي وإدراكه لمصادر قوّته.

تطوّر تقانات المواصلات والاتّصالات.

الثورة الإسلاميّة في إيران عام 1979م.

وجود مراقد بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام.

نقاط الضعف في الانبعاث الشيعي المعاصر

هناك جوانب سلبيّةٌ في الوضع الشيعي العامّ والعراقي بشكلٍ خاصٍّ كونه مجتمعاً إنسانيّاً يحمل أمراض البيئة التي يعيش فيها، ويمكن إجمال هذه السلبيات بما يأتي:

ظاهرة تشرذم الشيعة بين المرجعيّات السياسيّة والدينيّة: هذه الظاهرة يمكن ملاحظتها بوضوحٍ في الشخصيّة الشيعيّة بشكلٍ عامٍّ، فالشيعة منقسمون بشأن مرجعيّة التقليد الدينيّة التي يرجعون إليها بين كثيرٍ من المراجع، بل وبعضهم لا ينتمون لمرجعيّة تقليدٍ حيّةٍ، كذلك نلاحظ أنّ كثيراً منهم ينتمون لفصائل مسلحةٍ متنوعةٍ، ولأحزابٍ وتيّاراتٍ مختلفةٍ، لكنّهم جميعاً يحترمون مرجعيّة السيّد السيستاني في النجف الأشرف.

عقدة الشعور بتفوّق الآخر: وهذه العقدة إنّما تلاحظ بشدّة في الواقع الشيعي العربي والعراقي، بينما لا نرى لها أثراً عند الإيرانيين لأسبابٍ عدّةٍ لا يسع المجال لها.

انتشار الجوع والفقر في صفوف الشيعة: وهذه الظاهرة نلاحظها بوضوحٍ تامٍّ في المدن والمناطق الشيعيّة بشكلٍ عامٍّ، إذ

تتكدّس عوائل كبيرة العدد في مساكن ضيّقةٍ ولا تتوفّر فيها مقوّمات الراحة ممّا ينتج عنها كثرة المشاكل الاجتماعيّة بين أفراد الأسرة الواحدة وتزايد حالات الطلاق وغيرها من المشاكل.

انتشار ظاهرة الأيتام والأرامل والمعوّقين جرّاء الحروب والعمليّات الإرهابيّة للجماعات التكفيريّة التي تستهدفهم بشكلٍ خاصٍّ.

كثرة الشهداء بسبب العمليّات الإرهابيّة في العالم العربي واشتراك القوى الشيعيّة في العمليّات الحربيّة لتحرير المدن التي احتلتها داعش في العراق وسوريا، حيث لا تجد حيّاً أو مدينةً أو عشيرةً شيعيةً لم تقدّم ضحايا في هذا السبيل.

ظاهرة النزاعات المسلحة بين أفراد العشائر في الأحياء والمدن والقرى الشيعية في وسط وجنوب العراق بسبب توفّر السلاح وضعف سلطة الدولة.

هذه السلبيّات والمشاكل وغيرها ممّا لم نذكرها، تحتاج إلى استقصاءٍ ودراساتٍ أخرى متخصّصةٍ فيها.

عناصر الانبعاث الشيعي المعاصر

يمكن تحديد عناصر الانبعاث الشيعي المعاصر الرئيسة بحسب الآتي:

جمهوريّة إيران الإسلامية

يشكّل الدين الإسلامي قبل كلّ شيءٍ أقوى سلاحٍ في ترسانة القوّة الناعمة لدى إيران، ومعاداة الولايات المتحدة وإسرائيل

العنصرين الثاني والثالث من عناصر قوّتها، والذي يرتّب على جمهوريّة إيران الإسلاميّة التزاماً مبدئياً بدعم الدول والمنظمات المناهضة لأمريكا وإسرائيل ومساندتها، ويشكّل المذهب الشيعي، ولاسيّما التفسير الثوري للدين الذي صاغته المؤسّسة الدينيّة الإيرانيّة خلال العقود الأربعة المنصرمة، العنصر الرابع من عناصر القوة الناعمة لدى الجمهورية الإسلامية، أمّا العنصر الخامس فيكمن في حبّ الإيرانيين لدولتهم وحضارتهم ممّا يعزّز الشعور القومي القوي لدى الإيرانيين[1].

إضافةً إلى ما تقدّم فإنّ حياكة المؤامرات وتدبير الحروب ضدّها وإيقاع العقوبات عليها من دول الغرب بشكلٍ خاصٍّ، شكّل لها تحدياً حضارياً ممّا دفعها للاستجابة بتفعيل جوانب التطوّر العلمي والتقني والاجتماعي في المجالات كافّةً بحيث أضحت رقماً صعباً في المعادلات الدولية وقوّةً عظمى في المنطقة والعالم تحسب لها أمريكا وإسرائيل ودول الغرب ألف حساب.

وبحسب فهمنا لطبيعة تطوّر الغرب - وعلى رأسه أمريكا- وطرق تعامله مع الدول الصاعدة والمناهضة له، أعتقد أنّه سوف ينتهز الفرصة المناسبة لضرب إيران وتدمير أسباب قوّتها وضمان عدم نهوضها مجدداً كما فعل مع العراق مع فارق الحالتين بالطبع.

المقاومة الشيعيّة في لبنان (حزب الله اللبناني انموذجاً)

نشأ حزب الله في لبنان في ظرفٍ سياسيٍّ وعسكريٍّ خطيرٍ،

(1) زيبا كلام، صادق، ترجم الورقة عن الإنجليزية: د. موسى الحالول، ورقة بحثية عن القوة الإيرانية الناعمة، الموقع الالكتروني لمركز الجزيرة.

إذ كانت لبنان تعاني آنذاك من حربٍ أهليّةٍ طاحنةٍ بدأت عام 1975م أعقبها احتلالٌ إسرائيليٌّ للبنان واحتلال بيروت عام 1982، ممّا شكّل صدمةً كبيرةً للأمّتين العربيّة والإسلاميّة، وكانت الساحة السياسيّة والعسكريّة الشيعيّة تضمّ بعض الأحزاب السياسية والتنظيمات المقاتلة والتي اشتركت بالحرب الأهليّة اللبنانيّة كمنظّمة أمل اللبنانيّة، فدعت الحاجة آنذاك إلى تأسيس تنظيم سياسيٍّ - عسكريٍّ شيعيٍّ مقاوم غير تقليديٍّ، يستمدّ وجوده العقدي من مدرسة أهل البيت عليهم السلام وبخاصّة ثورة أبي الأحرار الإمام الحسين السبط الشهيد عليه السلام، ويستند في نجاحه إلى اعتماد مفردات السنّة الإلهيّة بالركون الوثيق إلى جمهوريّة إيران الإسلاميّة، وتنمية مصادر القوّة المستدامة عنده لمقارعة أعداء الله الصهاينة وتحرير الوطن من براثنهم، فولد حزب الله من رحم المعاناة والآلام وبدأ بعمليّاته ضدّ الاحتلال الإسرائيلي فوراً.

وهنا يجدر توضيح نقطةٍ في غاية الأهمّية، وهو أنّ زمن الانكسارات والهزائم للأنظمة العربيّة[1]، قد بدأ منذ إنشاء دولة الكيان الصهيوني عام 1948م مروراً بالعدوان الثلاثي على مصر عام 1956م، وتوجت العنجهيّة الاسرائيليّة بنصرٍ ساحقٍ على

(1) ان الانظمة العربية الدكتاتورية هي وريثة الانظمة العثمانية والعباسية والاموية التي حاربت ائمة اهل البيت عليهم السلام وشيعتهم عبر التاريخ، قد فشلت مثيلاتها الحالية في انزال الهزيمة بإسرائيل عبر التاريخ الحديث، وكذلك فان المنظمات العربية المقاومة السنية كفتح وحماس وغيرهما، لم تحقق نصراً استراتيجياً كما حقق حزب الله على اسرائيل، وبذلك فشلت الانظمة والمنظمات في مجابهة اسرائيل.

الأنظمة العربية عام 1967م، فكانت تمثّل الذروة للقوّة الإسرائيليّة واستمرّت إسرائيل بالتربع على الذروة بفعل **الدفقة التأسيسيّة** التي حقنها الآباء المؤسّسون للدولة اليهوديّة في قلوب الإسرائيليين وعقولهم، مروراً بحرب 1973م لحدّ عام 1982م، والذي بدأ فيه **الشيعة** بقتال الإسرائيليين على يد حزب الله بشكلٍ رئيسٍ والتنظيمات اللبنانيّة الأخرى، وبدأت عوامل الهزيمة تلوح في أفق الكيان الإسرائيلي بفعل الخسائر الجسيمة التي ألحقتها المقاومة الشيعية بالجيش الإسرائيلي الذي وصفوه بجيش الربّ والجيش الذي لا يقهر و.... إلخ من الأوصاف.

وفي عام 2000م بدأ نجم القوّة الإسرائيليّة بالأفول، حينما أعلنت إسرائيل انسحابها المذلّ من جنوب لبنان وإقرارها بالهزيمة على لسان كبار قادتها، وبذلك انتصرت المقاومة اللبنانيّة الشيعيّة وبإمكاناتها البسيطة على الجيش الأسطورة، واستمرّ الخط البياني للقوّة الإسرائيليّة بالانحدار بشدّة في حرب الثلاثة والثلاثين يوماً مع حزب الله عام 2006م، والتي عجزت إسرائيل فيها من تحقيق أيّ انجازٍ عسكريٍّ على الأرض، رغم الإمكانات الضخمة التي تمتلكها والدعم اللامحدود من أمريكا والغرب بل وحتّى من دول الخليج النفطيّة بالسرّ، وفرض حزب الله توازن رعبٍ على إسرائيل التي فقدت المبادأة الاستراتيجيّة لأوّل مرّة في تاريخها، وأضحت هذه المعادلة الرادع الرئيس لإسرائيل من العدوان على لبنان مرّةً أخرى وإلى أن تدخل متغيّراتٌ استراتيجيّةٌ تغيّر من توازن الرعب هذا.

انبعاث القوّة الشيعيّة في العراق بعد سقوط نظام الطاغيّة عام ٢٠٠٣م

إنّ انبعاث القوّة الشيعيّة في العراق بعد عام 2003م، لم يأت من فراغٍ بل إنّ له جذوراً كامنةً في الوعي الشيعي منذ قرونٍ طويلةٍ من الزمن، ولكن لم يكن له أن يظهر بهذا الشكل بسبب الاضطهاد المتسلّط على رقاب الشيعة طيلة الزمن الماضي، وعندما أُتيحت الفرصة التاريخيّة بعد سقوط النظام الصدامي الدكتاتوري، ظهر بشكلٍ واضح عبر الممارسات العباديّة المليونيّة وغيرها من الأنشطة والفعاليّات الاجتماعيّة والسياسيّة والعسكريّة، وتطوّرت القوّة الشيعيّة الصاعدة بشكلٍ واسع بعد توفّر التهديد الوجودي متوسط الشدّة ضدّهم والذي أنتج قوةً شيعيّةً قلبت الموازين في المنطقة والعالم ونعني بها الحشد الشعبي.

نشأت قوات المقاومة الشيعيّة المسلّحة لدواعٍ كثيرةٍ أهمّها مقاومة الاحتلال الأمريكي أوّلاً وصنيعته الإرهاب التكفيري فيما بعد.

إنّ إحساس بعض القوى الشيعيّة الواعية بالتهديد الوجودي ضدّ الشعب العراقي بشكلٍ عامٍّ والشيعة بشكلٍ خاصٍّ بلور لديهم فكرة إنشاء قوّاتٍ مقاومةٍ شعبيّةٍ تأخذ على عاتقها مهمّة تحرير البلد من الاحتلال الأمريكي الغاشم وطرد التكفيريين السلفيين من المناطق التي احتلوها، وعندما تعاظم التهديد الوجودي ضدّ الشيعة بشكلٍ خاصٍّ والعراق بشكلٍ عامٍّ، بقيام داعش باحتلال أجزاء من شمال العراق وغربه ووصوله إلى ضواحي بغداد وتهديد كربلاء

والنجف الأشرف، أصدرت المرجعيّة فتوى الجهاد الكفائي بتأريخ 6/13/ 2014م، فتقاطر غيارى العراق على مراكز التطوّع والتحق قسمٌ كبيرٌ منهم بفصائل المقاومة الموجودة أصلاً، وقاموا بصدّ الهجمة التكفيريّة وطردها من معظم الأراضي التي احتلّتها وحصر الإرهابيين في مناطق محدودةٍ تمهيداً للقضاء التامّ عليهم، مردّدين على الدوام شعارهم الحماسيّ الرائع المزلزل لكيان الإرهابيين:» لبيك يا حسين لبيك يا علي لبيك يا زهراء».

إنّ الحشد الشعبي اليوم في تلبيته لنداء المرجعيّة الدينيّة واستجابته للجهاد، وخروج آلاف المجاهدين من أتباع أهل البيت عليهم السلام لنصرة الدين والوطن، لم يكن وليد صدفةٍ، بل نبع من الأثر التاريخيّ المتجذّر في المخيّلة الشيعيّة لثورة الإمام الحسين عليه السلام، وقيام المنابر الحسينيّة بإذكاء جذوته وإبقائها مشتعلةً في النفوس والضمائر في المناسبات الدينيّة المختلفة، وفي مجالس العزاء والبكاء المقامة عبر التاريخ، وهذه الممارسات والشعائر هي التي أبقت جذوة هذه الحرارة متوهّجةً وحيّةً وماثلةً في النفوس عبر الأجيال، وهذا ما أدّى بالمخيّلة الشيعيّة – والتي نعني بها الوعي الكامن في الضمير الجمعي الشيعي – إلى الارتباط العضوي بالإمام الحسين عليه السلام وتشكيل الهويّة الشيعيّة وطبعها بطابعه الخاصّ دون سائر المذاهب الأخرى[1].

إنّ قوات الحشد الشعبي وفصائل المقاومة الشيعيّة الأخرى

(1) العارضي، احسان، الشهادة الحسينية والحشد الشعبي..... تعانق الفعل والموقف، دراسة مشاركة في المؤتمر الحسيني الرابع، كلية التربية – ابن رشد،2015، ص1.

تتطوّر باستمرارٍ مكتسبةً تجارب ثرّةً من الجهاد المتواصل ضدّ الأعداء، ممّا أكسبها خبراتٍ فريدةً أهّلتها لأن تكون قوّةً معتبرةً يحسب لها الأعداء ألف حسابٍ.

المبحث الثاني

التهديد الوجودي: مفهومه، درجاته.

نقصد بالتهديد الوجودي ذلك التهديد الذي تمثّله قوى داخليّةٌ أو خارجيّةٌ للمكوّن الشيعي تستهدف أصل وجوده والقضاء عليه وتدميره تماماً كونه يمثّل تحدّياً خطيراً لها على المستوى الفكري وبما يمتلك من مقوّمات القوّة الذاتيّة الفاعلة فيه، ويهدّد مخطّطاتها ويستهدف تدمير أطماعها في المنطقة والعالم، وقد حدّد القرآن الكريم والسنّة المطهّرة تلك الجهة الرئيسة والجهات المحلّيّة المرتبطة بها ممثّلة ببني إسرائيل وأتباعهم من المنافقين والمنتفعين.

درجات التهديد الوجودي:

نستطيع أن نقسّم درجات التهديد الوجودي إلى ثلاثة أقسامٍ رئيسةٍ:

الأوّل: التهديد الوجودي ضعيف الشدّة: وهذا التهديد لا يشكّل خطراً على الوجود في هذه المرحلة كونه لم يستكمل مقوّمات قوّته بشكلٍ تامٍّ لكنّه يمثّل تهديداً ينبغي الالتفات إليه والتصدّي له واجهاضه في هذه المرحلة، ويمكن تشبيهه بالجراثيم التي تغزو الجسم البشري بالبداية إذ تبقى كامنةً فيه تبني وتستكمل عوامل قوّتها بعد تموضعها في نقطةٍ معينةٍ من الجسم.

إنّ هذا التهديد وبسبب عدم وضوحه بشكلٍ كافٍ لعامّة الناس لا ينفعل به أو يدرك خطورته إلّا النخب الرسالية الفاعلة التي يفترض بها القيام بواجبها في التصدّي له حالهم حال الأطبّاء تماماً عندما يكتشفون بوسائلهم الطبيّة والمختبريّة أعراض المرض قبل تطوّره واستفحاله، وفي هذه المرحلة يمكن التخلّص منه عبر وسائل مناسبةٍ، وهنا يمكننا التذكير بالإجراءات المناسبة التي قامت بها الجمهوريّة الإسلاميّة الفتيّة في إيران ضدّ أعدائها في الداخل أو الخارج بحيث قضت على التهديد الوجودي الذي استهدفها من أعدائها.

الثاني: التهديد الوجودي متوسّط الشدّة: يتحوّل التهديد الوجودي ضعيف الشدّة بسبب عوامل مواتيةٍ له عدّة إلى تهديدٍ متوسّط الشدة ونقصد به: ذلك التهديد الذي يمكن له أن يلحق أضراراً شديدةً بالجهة التي يستهدفها ويكون التصدّي له مكلفاً، وإذا لم يجابه بشكلٍ صحيحٍ فإنّه يتحوّل إلى تهديدٍ قوي الشدّة أو ماحقٍ للجهة التي يستهدفها.

لدينا في العراق مثالٌ على هذا التهديد في حقبتين تاريخيّتين:

الأوّل: عندما أُثير الوجدان الشيعي العاطفي بشدّة يوم قام التكفيريون بتفجير مرقدي الإمامين العسكريين في شهر شباط عام 2006م والذي حدث بعد مذابح مروّعة قام بها التكفيريون في بغداد والمحافظات ضدّ أتباع مذهب أهل البيت طيلة السنوات التي سبقت التفجير للمرقدين العسكريين عليهما السلام، لكنّ الشيعة لم يتأثّروا بها بقدر هذه الحادثة التي مسّت الرموز المقدّسة للشيعة، فقامت قوّةٌ

أهليّة من الشيعة الإماميّة في العراق تشكّلت في الأساس من أتباع الخط الصدري وانضم إليها الآخرون من أتباع المرجعيات الأخرى، بالتصدّي لهؤلاء وإلحاق الهزيمة بهم مع القوات المسلحة الناشئة آنذاك.

والثاني: غلب الشعور بالأمان والتراخي عند عامّة الشيعة في العراق بعد عام 2009م ممّا مهّد الأمور مع أسباب أخرى عدّةٍ إلى ظهور قوةٍ تكفيريّةٍ ممثّلةٍ بداعش استهوت الكثير من الشباب السنّي الناقم على الأوضاع المزرية التي يعيشها والتّواق إلى التغيير ممّا مكن قادة التكفير ومن يقف خلفهم من تجنيد أعدادٍ كبيرةٍ منهم، الأمر الذي مكّنهم من احتلال (40 ٪) من مساحة العراق فقامت المرجعية بإصدار فتوى الجهاد الكفائي بتاريخ 13حزيران 2014م فتشكل الحشد الشعبي الذي قام بالتصدّي للتكفيريين وإلحاق الهزائم به.

ثمة نقطةٌ لا بدّ من الإشارة إليها وهي أنّ فصائل المقاومة الممثّلة بكتائب حزب الله وحركات المقاومة العراقيّة المسلّحة قد قامت بواجبها بالتّصدي لهؤلاء التكفيريين داخل العراق وخارجه قبل الفتوى التي أصدرها السيّد السيستاني وهذه نقطة وعيٍ تسجّل لصالحها.

المبحث الثالث
المراحل التاريخيّة ـ الحركيّة للانبعاث الشيعي المعاصر

بنظرةٍ تاريخيّةٍ متمعّنةٍ مختصرةٍ في التاريخ الإسلامي نستطيع أن نقسم المراحل الحركيّة للقوة الشيعيّة الصاعدة بحسب الآتي:

المرحلة الأولى: مرحلة الصدمات أي أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام

وأتباعهم واجهوا صدماتٍ تاريخيّةً قويّةً تمثّلت بمحاولات الفريق الآخر تفتيتهم والقضاء عليهم، فقد بدأت أولى هذه الصدمات قبل لحوق الخاتم صلى الله عليه وآله بربّه الكريم بأربعة أيام والتي عرفت فيما بعد برزية **يوم الخميس** وقد ذكرتها كتب المسلمين من الفريقين بروايات صحيحةٍ جمّةٍ.

وبعد لحوق الرسول صلى الله عليه وآله بربّه الرحيم مباشرةً ألحقَ زعماء الفريق الآخر المعادي لأهل البيت عليهم السلام بهم صدمةً ثانيةً تمثّلت فيما عرف بعد ذلك بأحداث **السقيفة** والتي تمّ فيها سلب الخلافة المنصوص عليها ربّانياً ورسوليّاً من أمير المؤمنين علي عليه السلام، وأتبعها زعيم الخط المناوئ لأهل البيت عليهم السلام عمر بن الخطاب بتعيين معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام وتركه يصول فيها ويجول دون محاسبته دون سائر عمّاله على الأمصار الأخرى، ممّا مكّن معاوية الطليق من توطيد أركان حكمه وتنمية موارده المادّية والبشرية والتأسيس للصدمة بالخروج على خلافة الإمام علي عليه السلام وبقتل الإمام الحسن عليه السلام بالسمّ، والإمام الحسين عليه السلام بالسيف في واحدةٍ من أبشع حوادث التاريخ دمويةً وقسوةً، وتتالت المحن تترى على أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم إلى عصر الإمامين الصادقين عليهما السلام.

المرحلة الثانية: مرحلة التأسيس وامتصاص الصدمة:

استثمر الإمام محمّد الباقر عليه السلام فرصة ضعف الدولة الأموية لنشر تعاليم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وبثّ الأحكام الإلهيّة، لكن المجال اتّسع بشكلٍ أكبر للإمام جعفر الصادق عليه السلام إبّان شيخوخة الدولة الأمويّة وضعفها وبداية نشوء الدولة العباسيّة، فقام بتأسيس أركان

المذهب الشيعي الإمامي ووضع أصوله ومقوّماته الفكريّة والعمليّة، بعد أن كان غير محدّد الملامح العقديّة والفقهيّة والفلسفيّة، إذ كان يُعرفُ الشيعةُ في السابق فقط بموالاة أمير المؤمنين عليٍّ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام.

(فاشتهر في ذلك العصر ذكر جعفر بن محمّد عليه السلام واتّسعت أمامه حريّة القول وحريّة النقض والإبرام في شأن الحقائق الدينيّة من جهةٍ، والمشتبهات والموضوعات على غير أساسٍ صحيحٍ من الأحاديث والسنّة من جهةٍ أخرى.

وازدحم طلّاب العلم على أبواب مدرسته وكثرت الهجرة إليها فنسب المذهب إليه في عهد ازدهار العلم، لأنّ كلّ ما ذهب الإمام الصادق عليه السلام إلى تصويبه والوثوق بصحّته من الأحكام أصبح بجملته يسمى مذهب جعفر الصادق عليه السلام[1]).

المرحلة الثالثة: عصر الضغط السلطوي

بعدما توطّدت أركان السلطة العباسيّة زمن المنصور الدوانيقي قام بالغدر بأهل البيت عليهم السلام وشيعتهم لأنّه خشي من تعاظم شأنهم لدى الأمّة وفي ذلك الخطر الأكبر على سلطانهم الجديد، يقول السيوطي: «والمنصور أوّل من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وكانوا شيئاً واحداً»[2].

واستمرّ هذا النهج سياسةً قائمةً ثابتةً تتوارثها السلطات المتعاقبة

(1) حيدر، اسد، الامام الصادق والمذاهب الاربعة، دار الكتاب الاسلامي، الطبعة الثانية،1425هـ ق -2004م، الجزء الاول، ص 227.

(2) الامام الصادق والمذاهب الاربعة، ص 483.

على مرّ التاريخ وإلى قيام الثورة الإسلاميّة في إيران.

المرحلة الرابعة: شكّلت الثورة الإسلاميّة في إيران مَعلماً بارزاً في الانبعاث الشيعي المعاصر، إذ شكّلت هذه الثورة بمواصفاتها العقديّة والجماهيريّة والقياديّة أنموذجاً ثورياً أحدث زلزالاً شديداً في الواقع العربي والإسلامي والعالمي وأيقظت الفكر الإسلامي من جموده وحرّكت عوامل القوّة والنضوج فيه، فلأوّل مرّةٍ في التأريخ الإسلامي تحدث ثورةٌ شيعيةٌ شعبية الطابع ثوريّة المنهج ربّانية القيادة في إيران، واستمرّت هذه التجربة الثوريّة بانضاج عوامل قوّتها واستكمال أسباب نهضتها وقيامها بدعم الثورات ضدّ الظلم في العالم أجمع ووفّرت الوسائل الإعلاميّة والسياسيّة وغيرها لهذه الثورات ممّا أحدث صحوةً إسلاميةً شاملةً فحاول الأعداء ركوب موج زخمها المتصاعد بخلق جماعاتٍ سلفيّةٍ تكفيريّةٍ متشدّدةٍ وتقويتها، ودعم الأنظمة الرجعيّة المتحالفة معها في المنطقة والعالم، لكنّ إيران صمدت وطوّرت عوامل القوّة فيها بحيث أضحت قوةً كبرى إقليميّاً ودوليّاً.

المبحث الرابع
التحدّيات المعاصرة وآفاق المستقبل

أدركت القوى الاستكبارية وذيولها في المنطقة تنامي القوّة الشيعيّة وتعاظم دورها في المنطقة والعالم والأثر الكبير الذي أحدثته في نفوس الشعوب العربيّة والإسلاميّة والخطر الاستراتيجي الكبير الذي وصل إلى حدّ التهديد الوجودي متوسّط الشدّة ضدّها،

الأمـر الـذي دفعهـا إلى اعتمـاد خططٍ اسـتراتيجيةٍ كبرى فـي المجالات السياسـيّة والاقتصاديّـة والاجتماعيّـة والعسـكريّة تهـدف إلـى تحجيـم هـذا الانبعـاث وخنقـه، وصـولاً إلـى تدميـره والقضـاء عليـه فـي نهاية المطاف.

وبغيـة تسـليط بعـض الأضـواء علـى هـذه التحدّيـات الخطيـرة للوجـود الشـيعي، قسـمناها إلـى أربـع محـاور وباختصارٍ شـديدٍ كونها تحتـاج إلـى دراسـاتٍ مفصّلـةٍ وعميقـةٍ نتركهـا لـذوي الاختصاص:

المحـور السياسـي: تشـكّل محـور المقاومـة أو الممانعـة بيـن إيـران وسـوريا وحزب الله وفصائـل المقاومة العراقية وتدخّلت روسـيا الاتّحاديّـة إلـى جانب هـذا المحور خدمـة لمصالحها الاسـتراتيجيّة في المنطقـة، وفـي المقابـل كانـت هنـاك قـوى دوليـةٌ كبـرى على رأسـها أمريـكا ودول الغـرب ودولٌ إقليميّـةٌ ممثّلـةٌ بإسـرائيل وتركيـا ودول الخليـج النفطيّـة وعلـى رأسـها مملكـة آل سـعود والتـي قامـت بدعـم الجماعـات التكفيريّة التـي جمعتها الإرادة الغربيّة فـي المنطقة وتمويلها وتسـليحها لاسـيّما فـي العـراق وسـوريا [1] لاسـتخدامها أدواتٍ غبيةً – لكنّهـا فعالـةٌ – لتدميـر الوجـود الشـيعي أو انهاكه في الحـدّ الأدنى على المسـتوى الاسـتراتيجي الشـامل لتحييد دوره في المسـتقبل بشكلٍ تامٍّ.

ويمكننـا إدراج بعـض هـذه المحـاولات فـي المحـور السياسـي بالنقـاط الآتية:

(1) يرجـى مراجعـة خطـاب السـيد حسـن نصـر الله فـي هـذا الصـدد بمناسـبة الذكرى السـنوية لـولادة بضعة المصطفى صلى الله عليه وآله السـيدة فاطمة الزهـراء عليها السلام بتاريخ 2017/3/18م.

تفكيك العلاقة بين أطراف محور المقاومة: وتأتي زيارة الجبير وزير خارجية مملكة آل سعود إلى العراق وزيارة الملك سلمان لبعض الدول الآسيوية وزيارة ولي ولي العهد السعودي محمّد بن سلمان إلى أمريكا لتصبّ في هذا الجهد السياسي.

إيكال دورٍ اقليميٍّ لروسيا الاتّحاديّة لخدمة هذا المشروع بتفكيك العلائق بين أطراف هذه المحور، وتأتي زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو إلى روسيا الاتّحاديّة لخدمة هذا الجهد، وقد ضغطت روسيا الاتّحاديّة على الحكومتين السوريّة والإيرانيّة لسحب فصائل المقاومة من سوريا (حزب الله وفصائل المقاومة العراقيّة) وإحلال قوّاتٍ روسيةٍ مكانها.

إعادة التموضع السياسي التركي بعد التحرّكات العسكريّة التركية في شمال سوريا والعراق بما يخدم هذا الاتّجاه.

تأجيج الخطاب الطائفي السنّي المحرّض ضدّ الشيعة في الأوساط الإسلامية والعربيّة بوصفها ذات أغلبيةٍ سنّيةٍ تستجيب بشكلٍ فاعلٍ لهذا الخطاب بفعل عوامل التاريخ والجغرافية والتعصّب.

إضعاف الدولة العراقية عبر إيكال أمريكا ودول إقليميّةٍ طائفيّةٍ أدواراً سياسيّةً للأكراد وبعض القادة السنّة العراقيين عبر طرح مشاريع مشبوهةٍ وتقسيم العراق على أساسٍ عرقيٍّ وطائفيٍّ.

تشكيل رأيٍ عامٍّ محليٍّ وعربيٍّ وإقليميٍّ يطالب بحلّ الحشد الشعبي.

المحور العسكري: وهو من أبرز المحاور التي قامت عليها جهود الأعداء لتحطيم الانبعاث الشيعي المعاصر وقد ذكرنا سابقاً

بعض الأعمال العسكرية التي قام بها الأعداء ابتدأت بها أمريكا باحتلال العراق عام 2003م بعد شعورها بالتهديد القوي الذي مثّلته النهضة التي قام بها السيد الشهيد محمّد محمّد صادق الصدر وتعاظم الوعي الشيعي في العراق والمنطقة وكذلك العمليّات العسكريّة التي قامت بها قوات الاحتلال واحتضانها بل وإعدادها للنخب التكفيريّة في معسكرات الاعتقال في بوكا وغيره ورعايتها ومساندتها للتكفيريين الذين عاثوا فساداً وتقتيلاً وتدميراً للبشر والبنى الاقتصادية.

إنّ عمليّات الاغتيال[1] وأحداث الفتن والاقتتال بين مكوّنات الشعب العراقي وتأجيج الصراعات الطائفيّة والعشائريّة وغيرها من الأعمال أدّت وتؤدّي إلى استنزافٍ منظّمٍ للقوّة البشريّة الشيعيّة بشكلٍ خطيرٍ.

المحور الاقتصادي: يهدف الأعداء إلى تدمير البنى التحتية لمحور المقاومة في المنطقة بشكلٍ عامٍّ وفي العراق بشكلٍ خاصٍّ، فعلى سبيل المثال لا الحصر، تمّ تدمير البنى التحتيّة للدولة السورية بشكلٍ تامٍّ بافتعال الحرب الأهلية وتغذيتها بأموال دول الخليج والحال نفسه جرى على اليمن والعراق، ومحاصرة إيران وتهديدها بالضربة العسكرية وفرض عقوبات على حزب الله اللبناني....إلخ، وسنحاول إيراد بعض هذه الأعمال في العراق على سبيل المثال لا الحصر:

(1) اعد الامريكان قوة خاصة للاغتيالات من افراد عراقيين انتخبتهم بعد اختبارات عدة اطلقت عليها اسم (قوة النمور).

أ. إستنزاف منظّم لنهب الثروة النفطيّة وبقيّة الثروات من الوسط والجنوب ذي الأغلبية الشيعية عبر عمليات فسادٍ منظّمةٍ تشرف عليها قوى سياسيّة نافذةٌ.

ب. قيام الأكراد باستنزاف الثروات الشيعيّة في محافظات الوسط والجنوب دون أن يقدّموا أي خدمة بالمقابل، وهم يتصرفون بوصفهم دولةً داخل دولةٍ لا يحترمون قوانين الدولة العراقيّة وهيبتها، وعلى سبيل المثال زيارة مسعود البارزاني إلى دول العالم دون علم الحكومة، واحتلال قوّة كرديّة لحقول النفط في كركوك وقيام محافظ كركوك برفع العلم الكردي فوق مباني الحكومة المحليّة... إلخ والقائمة تطول.

ت. تحمّل الشيعة للضرائب المختلفة دون الأكراد والسنّة (الكهرباء وضريبة الدخل وغيرها من الاستقطاعات).

ث. العمل بشكلٍ غير مخطط في تدبير الموازنة بحيث انخفض احتياطي البنك المركزي من العملة الصعبة إلى أقلّ من النصف في عهد حكومة العبادي [1]، وكذلك اعتماد قروضٍ كبيرةٍ بشروطٍ ماليةٍ مجحفةٍ لسدّ العجز في الموازنة ممّا جعل العراق مطلوباً لعقودٍ قادمةٍ.

ج. زيادة ديون الدولة العراقيّة إلى أكثر من (120) مليار دولار خلال أقلّ من بضعة سنين.

(1) انخفض الخزين المالي للبنك المركزي حالياً الى (48) مليار دولار بعد ان كان اكثر من (90) مليار دولار في بداية استلام حيدر العبادي للسلطة التنفيذية.

المحـور الاجتماعـي: وهذه بعـض النقـاط على سـبيل المثال لا الحصر:

أ. إضعـاف هيبـة القانـون والدولـة في المناطق الشـيعيّة بتشـجيع الاقتتـال العشـائري والمناطقـي وغيـره، وقـد قـدّم كثيـرٌ مـن مسـؤولي الدولـة أمثلـةً عديدةً فـي عدم احتـرام القانون والدولة ممّا شـجّع بعض الناس علـى الاقتـداء بهم.

ب. نشر الأفكار الإلحاديّة وتمزيق النسيج الاجتماعي.

ت. إضعـاف الهويّـة الوطنيّة الجامعـة لمكوّنات الشـعب وتغليب الهويّـة القوميّـة أو الطائفيّـة أو المناطقيّة أو العشـائريّة عليها.

هـذا غيـضٌ مـن فيـض والآتي أخطـر وأعظم وحسـبي مـن هذا الجهـد اثـارة الوعـي ازاء الأخطـار المحدقـة بالانبعـاث الشـيعي وقوّته الضاربة.

التوصيات

في نهاية هذه الدراسة الموجزة نؤكّد على النقاط الآتية:

أنّ اهتمام هذه الدراسة الموجزة ينصبّ بالأساس على رصد الوضع الشيعي بشكلٍ عامٍّ والانبعاث الشيعي المعاصر بشكلٍ خاصٍّ والانبعاث الشيعي في العراق بشكلٍ أخصّ.

نعتقد بقوّة أنّ الزمن القادم هو زمنٌ صعبٌ يختزن إرهاصاتٍ كبرى نحتاج فيه إلى الانتباه ورصد حركة الأعداء بشكلٍ دقيقٍ.

من المهمّ جداً على النخب الشيعيّة الواعيّة والممهّدة للإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف أن تقوم بواجبها الشرعي والأخلاقي بإثارة الوعي الشيعي إزاء التهديد الوجودي الذي يمثّله الأعداء للشيعة عبر المحاضرات والحوارات الجادّة وغيرها من الوسائل.

التصدّي الحازم لجميع المحاولات الرامية لحلّ هذه الفصائل أو دمجها بالجيش والأجهزة الأمنيّة والعمل على ترصين وجودها الرسمي بشكلٍ جيّدٍ، لأنّ القبول بهذا الأمر يعني ببساطةٍ شديدةٍ فقدان الشيعة أهمّ عناصر القوّة لديهم.

دعم فصائل المقاومة الإسلامية الشيعية من قبل الجميع والعمل على زيادة أواصر العمل الجماعي فيما بينها والتنسيق الجادّ في المجالات كافّة.

العمل على توحيد مواقف الشيعة في كلّ مكانٍ وإطلاق شعار « يا شيعة العالم اتّحدوا».

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين.

المصادر

– لمزيد من الايضاح عن السنن التاريخية: يمكن مراجعة كتابنا الموسوم: (دراسات موضوعية في السنن التاريخية).

– زيبا كلام، صادق، ترجم الورقة عن الإنجليزية: د. موسى الحالول، ورقة بحثية عن القوة الإيرانية الناعمة، الموقع الالكتروني لمركز الجزيرة.

– العارضي، احسان، الشهادة الحسينية والحشد الشعبي..... تعانق الفعل والموقف، دراسة مشاركة في المؤتمر الحسيني الرابع، كلية التربية – ابن رشد،2015.

– حيدر، اسد، الامام الصادق والمذاهب الاربعة، دار الكتاب الاسلامي، الطبعة الثانية،1425هـ ق -2004م.

– الامام الصادق والمذاهب الاربعة.

– يرجى مراجعة خطاب السيد حسن نصر الله في هذا الصدد بمناسبة الذكرى السنوية لولادة بضعة المصطفى صلى الله عليه وآله السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بتاريخ 18/3/2017م.